

المستهم

الإيضاح

في علل التَّجَوُّ

لأبي القاسم الزجاجي

المتوفى سنة ٢٢٧هـ

تحقيق
الدكتور مازن المبارك

دار النفائس

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثالثة

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

دار النفائس ت ٢٥٨٧٣٨ - ص. ب ٦٣٤٧ - بيروت

كلمة الناشر

اللغة هي وجه الفكر الظاهر للآلأ ، وهي خاصة من أبرز خصائص الامة ، ومرآة حضارتها ، وعامل مهم من عوامل وحلتها . وكل أمة تعز بشخصيتها وتفخر بذاتها ، تهتم بلغتها وتحافظ عليها محافظتها على ابنائها . فهي وان كانت لا تخرج في ظاهرها عن حروف وكلمات فان لها ، في شكلها المنطوق او المكتوب ، تأثيراً لا يعادله تأثير في نفوس ابنائها ، فكم من مقال او خطاب ... غير وجه التاريخ .

وللغة العربية بشكل خاص في أفئدة معظم الناطقين بها منزلة اسمى مما غيرها عند ابنائها . فهي لغة القرآن الوحي الإلهي الذي كرم الله عز وجل به العربية ، والذي يفقد اعجازه بترجمته ، مما جعل لها مكانة رفيعة ايضاً عند اجناس متفرقة مسلمة غير عربية .

وقد سارت اللغة العربية تقدم العرب العلمي والحضاري في الماضي ، وكانت لفترة من الزمن لغة العلوم في جميع انحاء العالم ، وكان علماءها اهلاً لحل رسالتها ، فوضعوا لها قواعد مكيئة تحميها من عبث العابثين وتكفل تقدمها وتطورها ، هذه اللغة تعرض اليوم الى حملة مسعورة ان لم نقل «مؤامرة» غرضها القضاء عليها . فن دعوة الى العامية ، الى دعوة للكتابة بالحروف اللاتينية ، الى المطالبة بالقاء الاعراب ... آراء مختلفة ظاهرها تطوير اللغة وباطنها القضاء عليها إذ هي أقوى رابطة توحد بين العرب في شتى أقطارهم وأهم عنصر من عناصر تكوين الأمة العربية .

إن انتشار اللغة وازدهارها مرتبط بوضع الأمة العلمي والحضاري ، فعندما كان العرب في أوج حضارتهم فرضت لغتهم نفسها على عدد كبير من شعوب الأرض ،

حتى على أولئك الذين احتلوا بلادهم عسكرياً ، وكانت عاملاً من عوامل تقدم العرب . اما اليوم حين خيم الركود على الربوع العربية فقد وجد اعداء العرب منفذاً ، فحاولوا ربط تأخر العرب في الحقل العلمي بلغتهم ، في مخطط ذكي للقضاء على ذاتية الامة بعدما أخفقت طريقة الاحتلال العسكري في تأدية اغراضها .

نحن لا ننكر أهمية تطوير اللغة وفائدة وجود أسماء للمخترعات الحديثة والمصطلحات العلمية فيها ، ولا ننكر اثر ذلك في تقدم اللغة ، لكن عملية توفير هذه المصطلحات يجب ان تتم وفق اسس سليمة وفقرتها اللغة نفسها ، بحيث يؤدي ذلك الى إثراء اللغة وليس الى هدمها . إن ما يواجهه العربية اليوم يمكن ان يواجهه كل اللغات ، وربما كانت العربية اقدر من غيرها ، بما لها من ميزات ، على مواجهة هذا الوضع وتخطيه . فالركود والجلود في عقول ابناء اللغة وليس في اللغة نفسها . وعلى هؤلاء ان يحركوا اللغة ولا يفسحوا المجال امام اعدائها ليطعنوا بها ويستغلوا حالة طارئة في تاريخها . وسيجد المهتمون بلغتهم في كتب الأقدمين منها صافياً ومعيناً لا ينضب في علوم اللغة كافة .

لقد كتب الاقدمون في كل علوم اللغة وابدعوا ، وستبقى كتبهم نافذة يطل منها ابناء هذا العصر على ماضي أمتهم الزاهر . كما ستبقى نقطة الانطلاق نحو إحياء اللغة وتطويرها وتجديد مناهجها .

وكتاب « الإيضاح في علل النحو » الذي نقدمه اليوم الى قراء العربية ودارسيها من أنفس ما كتب في موضوع العلل النحوية . وضعه إمام من أئمة اللغة والنحو في القرن الرابع هو أبو القاسم الزجاجي ، وحققه استاذ أسهم في تعليم العربية في عدد من الجامعات كما أسهم في إغناء المكتبة العربية بعدد من الكتب القيمة التي ألفها وحققها هو الدكتور مازن المبارك .

لذلك رأيت « دار النفائس » ان تقدم هذا الكتاب القيم بثوبه الجديد قياماً منها بواجب إحياء التراث وخدمة اللغة والله من وراء القصد .

أحمد راتب عزموش

مقدمة

بقلم الأستاذ الدكتور شوقي ضيف

لعل لغة من اللغات لم تعرف عناية بنحوها كما عرفت ذلك لغتنا العربية ، فقد توفرت منذ أوائل القرن الثاني للهجرة صفوة من العلماء ذوي النظر الثاقب والحنس اللطيف على وضع أصول هذا النحو وقواعده ، تدفعهم إلى ذلك حاجة المستعربين ، الذين دخلوا في الإسلام أفواجا بل أمما وشعوبا ، إلى تعلم لغة القرآن الكريم والوقوف على دلالات ألفاظه ودقائق معانيه .

ونهض علماء البصرة والكوفة بهذا العيب الجليل ، فانبروا يسجلون قراءات الذكر الحكيم ، ويجمعون الشعر الجاهلي والإسلامي ، ويقيدون ملاحظاتهم اللغوية . وكان للبصريين الحظ الأوفر في البحوث النحوية ، ولم يلبث عيسى بن عمر الثقفي أن وضع فيها كتابين هما : الإكمال والجامع ، وخلفه الخليل ابن أحمد الفراهيدي الأزدي ، فتمت لعلم النحو عنده آلاته وتكامل منهاجه ، وإن كان لم يؤلف مصنفاً غير أن تلميذه سيبويه الفارسي ألف على هدي إملائه « الكتاب » فأحاط فيه بأصول النحو وقواعده كافة .

وليس معنى ذلك أن نشاط المدرستين : الكوفية والبصرية ، خمد منذ هذا التاريخ ، بل لقد ظل مشتعلا متوهجا ، ولكن لاني وضع الأصول والقواعد النحوية فقد وضعت ، وإنما في بحث الفروع وتشعيبها وفتش العلل وتشقيقها . وتميزت كل مدرسة من المدرستين بخصائص اشتهرت بها ، فبينما عُنيت الكوفة لاستقراء والأخذ عن الأعراب والاهتمام بالشواذ اللغوية والنحوية ، عُنيت البصرة

باطراد القواعد وتعميمها وتقديم القياس على السماع . وافادت المدرستان جميعاً من المنطق والفلسفة ، كما افادتا من كل الجو العلمي الذي عبى أريجه في علمي الفقه والكلام .

ولا نصل إلى نهاية القرن الثالث الهجري حتى تتقارب المدرستان المتنافستان ، بل حتى تندجما في مدرسة جديدة ، هي مدرسة بغداد التي عني حذّاق النحاة فيها بانتخاب مزايا كل من المدرستين السالفتين ، وتوحيدها في مذهب جديد . وتدرج هذا المذهب في اطوار متعاقبة حتى اوفى على غايته .

ومن اهم ما يلاحظ على هذه المدارس جميعاً انها اخذت منذ الخليل بن احمد عبداً العلية ، فكل حكم نحوي يحلل ، وكل ظاهرة نحوية كلية او جزئية لا بد لها من علّة عقلية ، ولم يكتفوا بالعلل القريبة ، فقد ذهبوا بغوصون على كوامن العلل وخفيّاتها ودفائناتها ، وكل نحوي بصري أو كوفي أو بغدادي يحرب ملكاته الذهنية ، ويستنبط عللاً جديدة بحسب ما استخزن عقله من قوة البرهان وحشيشي من عمق الدلالة .

والخليل هو أول من بسط القول في العلل النحوية بسطاً لفت بعض معاصريه (انظر ص ٦٥ — ٦٦ من هذا الكتاب) فتقدم إليه يسأله : أأخذ هذه العلل عن العرب أم اخترعها من لدن نفسه ؟ فأجاب بأن العرب نطقت على سجيّتها وطباعها ، وعرفت مواقع كلامها ، وقام في عقولها علله ، وإن لم ينقل ذلك عنها ، وقال : وإنه اعتلّ بما رأى أنه علة لما علّله . فإن سنح لغيره علة لما علّله من النحو هي أليق مما ذكره بالمعلول ، فليأت بها .

وبذلك انفتح باب العلل واسعاً أمام النحاة ، وأخذ كل حاذق منهم يحلب اليه كل ما يستطيع من غرائب ونوادر ، لم يقفوا بها عند احكام الإعراب الظاهرة ، بل اداروها في واقع الكلام الإعرابي ولا واقعه ، وتجادلوا فيها طويلاً ،

مفضين في كثير من جدلهم إلى فروض وهمية ، حتى عقّدوا مصنفاتهم النحوية تعقيداً شديداً ، وحتى غدا كثير من مباحثها شيئاً عسيراً .

وكنا نظن ظناً ان ابن جنى اول من أفرد للعلل مؤلفات خاصة بها على نحو ما هو معروف في كتابه « الخصائص » حتى عثر السيد مازن المبارك على هذا الكتاب للزجاجي ، وقد اسماه « الإيضاح في علل النحو » وربما كانت هناك كتب اخرى تسبقه .

والكتاب ظرفة نفيسة ، لما يحمل من دراسة تاريخية جامعة للعلل النحوية ، ولأن صنعة الزجاجي فيه — كصنعتة في مختلف مؤلفاته — غاية في الوضوح والبيان ، فالضيم لا يدخل على أسلوبه ، ولا يدخل الاستغلاق على الفاظه ، إذ كان يطلب دائماً فيما يؤلفه ان يكون مفهوماً بحيث تقبل اوساط المتقنين على قراءته ، وبحيث لا يجدون فيه غموضاً ولا ما يشبه الغموض .

وقد جمع الزجاجي في هذا الكتاب العلل النحوية التي عُرِفَت حتى عصره ، سواء ما اتصل منها بالحدود واحكام الإعراب ، وما اتصل منها بالفروض والظنون الجدلية ، ونثر في تضاعيف ذلك بعض آرائه ، غير متحيّف لآراء من سبقوه من البصريين والكوفيين والبغداديين ، فهو يعرض آراءهم وعللهم في دقة ونحرّ شديد ، وقد يتدخل — ورائده الإنصاف — فيؤثر رأياً على رأي ، او علة على علة ، وقد يترك ذلك للقارئ ما دامت لم تستتب له الحجة الصحيحة التي يحكم على اساسها بين الطرفين المتعارضين .

وجهد نفسه اشد الجهد في معرفة تطور كثير من العلل ، فبدأ بأطراف منها منذ الخليل وسيبويه ، وسار بها مع الزمن لا يغادر علة لمعتل . وهو جانب مهم في الكتاب ، لأنه يرينا تطور العلل النحوية ، وكيف اخذت تنمو وتعتقد بمضي الوقت ، على ضوء ما ثقف النحاة من المنطق او من الفلسفة او من الفقه او من علم الكلام .

وإذا أخذنا نفحص هذه العلل التي نستقها الزجاجي في كتابه وجدنا كثرتها تخرج عن الغاية من النحو ، وهي صحة النطق عند المتكلم ، إلى ما يمكن ان نسميه فلسفة العلل النحوية ، وهي فلسفة في جمهورها غير عملية ، وليس وراءها اي طائل نحوي ، كأن يتساءلوا عن سبب الإعراب في الاسم ، ولم كان يظهر في آخره ولا يظهر في وسطه او أوله ؟ او يتساءلوا عن عدم جزمه كالفعل ، ولم كان المثني يرفع بالألف ولا يرفع بالواو ؟ ولم ضمّ النصب فيه وفي الجمع السالم إلى الخفض ، ولم يضم إلى الرفع ؟ ومن ذلك ان يتساءلوا عن الفعل والمصدر أيهما مأخوذ من صاحبه ومشتق منه ؟ وهل يستحق الفعل البناء او يستحق الإعراب ؟ ولم استحق الحرف البناء ؟ وهل الإعراب حركة او حرف ؟ وهل الإعراب اسبق أو الكلام ؟ ولم دخل التنوين في الأسماء ؟

ولكل سؤال من هذه الأسئلة جوابه ، وفي يد كل جواب علته ودليله ، وتقابل العلل والأدلة ، ويتجادل فيها النحاة جدالاً عنيفاً ، لا يفيد اللسان ولا اللغة اي فائدة ، إنما يفيد العقل من حيث هو ، وكأنما وجد فيها النحويون تمارين هندسية يشغلون بها اوقانهم .

ولعل من الطريف ان الزجاجي تنبه إلى طبيعة هذه العلل ، وما فيها من تكلف وتحل ، فقسمها إلى تعليمية وقياسية وجدلية ؛ فالتعليمية هي العلل الأولى التي تفيدنا الأحكام الإعرابية كأن نقول : العلة في نصب لفظة « زيداً » في قولنا : إن زيداً مسافر ، هي محيية إن قبلها . والقياسية هي العلل الثانية التي تأتي وراء العلل الأولى ، كأن يسأل سائل عن العلة في ان تنصب « إن » لفظة « زيداً » فيجيب النحاة بأنها هي واخواتها اشبهت الفعل المتعدي إلى مفعول به واحد ، فعملت عمله ، وتلاها منصوب كأنه مفعول به مقدّم ، ومرفوع كأنه فاعل مؤخر . اما العلل الجدلية فعلى ثوالت تأتي وراء العلل الثواني ، كأن يسأل سائل بأي الأفعال تشبه إن واخواتها أبالماضية ام المستقبلية ام الحادثة في الحال ؟

أو يسأل سائل ثان : لم لم تجر إن واخواتها على سياق الفعل فيتقدم معها مرفوعها على منصوبها كما يتقدم الفاعل على المفعول ؟ أو يسأل سائل ثالث : لماذا لم يجر في إن واخواتها ان يتقدم مرفوعها على منصوبها كما يحدث ذلك في الفعل ؟ فكل ما يعتل به النحاة جواباً عن هذه الأسئلة وما يماثلها يدخل في العلل الجدلية .

وواضح ان العلل التعليمية هي التي يحتاجها الناشئة في تعلم النحو ، اما العلل القياسية والجدلية او العلل الثواني والثالث فتزيد لا جدوى فيه إلا شغل العقل بالتأمل والنظر . وقد كانت هذه العلل المتكلفتة سبباً في ثورة ابن مضاء القرطبي على النحو العربي وما أصكّه النحاة فيه وخاصة نحاة البصرة ، فذهب يدعو إلى إلغاء نظرية العامل التي جرّت إلى أكثر هذه العلل القرضية ، كما دعا إلى إلغاء العلل الثواني والثالث ونقيها من كتب النحو ، إذ وجدها لا تفيد الناطقين شيئاً في نطقهم بالعربية الصحيحة سوى البعد بهم في التخيل والقرّض والوهم .

ومع اننا نؤمن في عصرنا بأن النحو ينبغي ان ييسر على الناشئة ، وان تخرج منه هذه العلل المعقدة ، نرى من الواجب ان يُعنى المتخصصون فيه بدراسة في صورته القديمة وكل ما داخلها من فلسفة العلة ، حتى يتبينوا نظوره وما شُفع به هذا التطور من جهود عقلية خصبة ، جعلت بعض المستشرقين يشيد بما تم لهذا العلم على ايدي اسلافنا من نضج واكتمال يحق للعرب ان يفخروا به .

ولعلي لا ابعد إذا قلت إن واجباً على من يحاولون تيسير نحونا ان يحبوا نصوصه القديمة حتى يضطلعوا بما يريدون من هذا التيسير عن علم وبصيرة ، ولذلك لم أتردد في أن أدفع السيد مازن المبارك إلى تحقيق هذا الكتاب ونشره بين ايدي الباحثين في النحو ، وان يتخذ موضوعاً لرسالته التي حصل بها على درجة الماجستير في الآداب من جامعة القاهرة ، فمكف على تحقيقه وإحيائه منقفاً كل

ما يستطيع من قوة ووقت وعناء ونصب ، وقدم له بدراسة قيمة ، ببحثه فيها
وصور منهجه واسلوبه ، وحلل مادة تحليلاً دقيقاً مما جعل ممتحنيه يقدرّون
له جهده العلمي في إحيائه ، وما بذل فيه من مشقة وتذرع به من دقة . وانا أهنته
على ما نال به من فوز وأذاع من فائدة ونفع .

والله نسأل ان يرزقنا السداد في القول والإخلاص في الفكر والعمل .

شوقي صيف